

الكتاب

المفاخرة بين المدن

د. مصطفى العلواني

المفاخرة بين المدن هي ضرب من الأدب الوصفي الرفيع الذي يقوم على المفاضلة بين مدينتين أو أكثر ابتكره العرب في الأندلس وانفردوا فيه .

ويكاد يكون وقفاً على لسان الدين بن الخطيب وإن كان قد ظهرت من قبل كتابات من هذا القبيل في فضل الأندلس للشقندي (المقري - نفح الطيب - رسالة الشقندي - ح ٤ ص ١٧٧) . غير أن رسالة الشقندي كانت رسالة بفضل بعض مدن الأندلس في حين أن رسالة لسان الدين بن الخطيب أكثر تحديداً وأشد تخصصاً وامتازت بالمقارنة وقامت على أصول علمية وفنية وكتبت بأسلوب أدبي رفيع ومسجوع . لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦ هـ) المقابل (١٣١٣ - ١٣٧٤ م) وزير الملوك بني الأحمر في غرناطة ووصف بالدهاء والعبقرية وكان شخصية فذة ، وهو فضلاً عن أنه أديب مبدع وشاعر ذائع الصيت اشتهر بأنه ذو ثقافة موسوعية في ميادين العلم والسياسة .

رافق ابن الخطيب سلطانه أبا الحجاج يوسف بن نصر الأول في رحلاته التفتيشية بمقاطعة غرناطة عام ٧٤٨ هـ وزار بلاد المغرب الأقصى سفيراً لغرناطة عام ٧٤٩ و ٧٥٥ هـ ثم التجأ إليها مرة ثالثة عندما نفى سلطانه المخلوع محمد بن يوسف بن نصر عام ٧٦٠ هـ ثم عاد إلى مقر حكمه مرة أخرى بعد عودة سلطانه بمساعدة ملك قشتالة وسلطان بني مرين . كان ابن الخطيب كثير التجوال وله ولع بمشاهدة الآثار ولقاء العلماء والصالحين . وقد سجل ابن الخطيب كل ما رآه عيناه وسمعته أذناه في جميع هذه الرحلات فأعطاه بذلك مادة خصبة يرجع إليها في كل ما نعرفه عن حضارة العرب في الأندلس في تلك الفترة .

وقد جمع الأستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي رسائله في كتاب دعاه باسم (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس) وهي أربع رسائل كتبها ابن الخطيب في هذا المضمار وهي حسب الترتيب الزمني :

١ - خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف •

٢ - مفخرة مالقة وسلا •

٣ - معيار الاختيار في ذكر المعاهد والآثار •

٤ - رحلته التي دونها في كتابه نفاضة الجراب في علالة الاغتراب •

وقد يكون لابن الخطيب في هذا المضمرا أكثر من هذه الرسائل الأربع ولا سيما أنك تلمح من خلال قراءتك لهذه الرسائل أنه مولع بهذا النوع من الكتابة محب له كل الحب بل هو عاشق له مستغرق بعشقه فيه ، بل كأنك تقع على علاقة غرامية بينه وبين هذا النوع من الكتابة ذات الأسلوب الرفيع المترف الذي يختلف عن أدب الرحلات ويفتقر عن موضوع الرسائل بهذا السر المنبعث من خلال السطور المتوهجة والنسيج البياني الذي يراوع ويسحر بل ما تشيعه أسماء الأماكن من سرور في النفس وبهجة في القلب ومتعة في الخيال وموسيقى في الشعور وما هذه المنشوة المنبعثة عن الوصف الجمالي حتى كأننا نحسبها ضرباً من أضرب الخيال ، أنه الرونق الصادر عن تألف جوانب مجتمعة •

وهذا النوع من الكتابة الذي يشعرك بذلك هو نوع من البيان الفريد اتسمت به الكتابات الأندلسية على درجة من التفاوت والتألق •

يبدأ ابن الخطيب مفاضلته أو ما أحب أن أدعوه بأدب المفاضلة بين المدن بالإجابة عن سؤال يتعلق بالمفاضلة بين مدينة مالقة وسلا •

ومالقة مدينة وولاية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط جنوبي شرقي الأندلس، وفي أيام ابن الخطيب كانت مالقة تعد العاصمة الثانية بعد غرناطة في مملكة بني الأحمر •

أما سلا فمدينة رومانية قديمة على ساحل المحيط الأطلنطي بأقصى المغرب ويفصلها عن مدينة الرباط جنوباً نهر « أبو الرقراق » وقد أقام بها ابن الخطيب عندما نفي مع سلطانه محمد الخامس عام ١٣٦٠ م ، وظل بها حتى عام ١٣٦٢ حينما عاد مع سلطانه المذكور بفضل مساعدة ملك قشتالة وسلطان بني مرين •

وهو قبل الإجابة يشكر السائل على الثقة به والرضى بحكمه ولا سيما أن ابن الخطيب قد سكن هذين البلدين فهو يصدر في حكمه عن معرفة وفي رأيه عن بصر ومشاهدة •

ومن الملاحظ أن ابن الخطيب يقرر قاعدة علمية قبل المقارنة حتى تكون المقارنة سليمة والمفاضلة مقبولة فيقول (على أن التفضيل يقع بين ما تشابه وتقارب أو تشاكل وتناسب والا فتمى يقع التفضيل بين الناس والنسنان، والملك والخناس، وقرد الجبال وظمي الكناس ؟) •

وكانه يقول لا تجوز المقارنة بين هاتين المدينتين لانتفاء توافر الحدود الدنيا في المقارنة وهذه قاعدة من قواعد منهج المقارنة في العصر الحديث •

وهذا مما يشير إلى أن ابن الخطيب قد أدرك بحسه العلمي قواعد المقارنة السليمة حين أورد النص السابق أعلاه . على أن ابن الخطيب رغم معرفته بذلك إلا أنه يمضي بها لأنها سؤال رجل وجيه أو ربما يكون رجلاً ذاشان أو السلطان نفسه ممن لا يستطيع لسؤالهم رداً ولا لطلبهم جحداً .

نعم أنه رغم إيمانه بأنه لا مجال للمقارنة ولا مسوغ لها من الوجهة العلمية يشرع بها ، لأن الطلب على ما يبدو هو من الطلبات التي ينبغي الرد عليها وذلك من قبيل السياسة وحسن التدبير رغم مخالفته للأصول العلمية حيث يقول (مألقة أرفع قدراً وأشهر ذكراً وأجل شأنًا وأعز مكاناً وأكرم ناساً وأبعد التماساً من أن تفاخر أو تطاول أو تعارض أو تصاول أو تراجع أو تتناول ، ولكنني سأنتهي إلى غرضك وأبين رفع مفترضك وأبين بين جوهرك وعرضك) .

وقبل الشروع بالمقارنة يبين ابن الخطيب الأوجه المتعارف عليها التي تشكل موضوع المقارنة والمفاضلة ، للمدن وهي المنعة - الصنعة - والبقعة - والشنعة (الشهرة) والساكين والحضارة ، والعمارة والآثار والنضارة .

ثم يأخذ بالمقارنة ويبين أن مألقة أرفع من سلا لكثرة أوجه المنعة التي تتصف بها . . . فأسوار مألقة مضاعفة في حين أن السلا سورا حقيقياً وقصبتها بالبلد متصلة ومن دعوى الحصانة متصلة ، ومن ثم يقول (ومن سقطت دعوى المنعة فلنرجع إلى قسم الصنعة ، فبالمألقة صنائع نفيسة ومتعددة في حين أنه لا توجد في سلا صنائع يقصد إليها أو يعول عليها) .

(ومألقة فوق هذا وذاك تتصف بالاعتدال والتربة المخصبة . . . في حين أن سلا بلد الرمال ومرعى الجمال ، وهذا من باب فضل الصنعة ، أما إذا ألمنا بذكر الشنعة فمألقة مشهورة بين العرب والفرنجة . . . ولا تتمتع سلا بهذه) .

وتشير الشواهد المختارة إلى ارتفاع مألقة في معارج الحضارة فيقول ابن الخطيب :

(ولنقل في الحضارة بمقتضى الشواهد المختارة ، ولا كالحلي والطيب والحلل المديبانية والجلابيب والبساتين ذات المرائى العجيب والقصور المبتناة بسفوح الجبال والجنات الوارفة الظلال والبرك الناطقة بالمعذب الزلال والملابس المختالة في أفنان الجمال . . .) .

(فأما سلا فأحوال رقيقة وثياب في غالب الأمر خليعة وذمم منحطة ، ونفقات تحصرها من التقدير خطلة . . .) .

وأما العمارة فللمألقة القدر المثلّي ويقصد بالعمارة في هذا المجال العمران المادي والعمران البشري فالبناء كثير ومنتظم والناس كثيرون تنص بهم السكك والأرباض وأسواقها بالذكاكين متراصة وهو يقسم بأن ريفاً من أرباضها أعمر من مدينة سلا وسلا لا تأكل إلا من غلالة جالب لا من فلاحه كاسب ومألقة مجتزئة بنفسها في الغالب .

والآن انظر إلى وجه من وجوه المفاضلة ينبع من الذوق ويصدر عن شاعرية رقيقة وأناقاة مترفة ألا وهو النضارة فما هو ذا يقول (وأما النضارة فمن ادعى أنه ليس في الأرض

مدينة أنضر منها جناباً ولا أغزر منها غروساً وأرج أزهاراً ولا أضواً نهارة لم تكذب دعواه،
ولا أزرى به هواء، إنما هي كلها روض وجابية وحوض وبساتين قد رقمتها الأنهار
وترنمت بها الأطيوار) .

وسلا بلد عديم الظلال أجرد التلال إذا ذهب زمن الربيع والغضب المريع صار هشيماً
وأضحى مأوه حميماً وانقلب الفصل عذاباً أليماً) .

وينتقل بعد ذلك الى الساكن والمساكن فمالقة ذات قصور بيض وملك طويل عريض
وما أدراك ما بها من جنة دانية القطوف ظاهرة المزية والشفوف، الى غيرها
مما يشذ عن الحصر الى هذا العصر) .

(وأما الساكن بمالقة بين راهن قيد الحياة ومنتقل من جناتها الى روضات الجنات
فاكبر به أن يفاضل أو يجادل فيه أو يناضل) .

أما مساكن سلا فهن قليل ورجالها ليس بالكثير وذيوخ الصيت مثل رجال مالقة الذين
أشادت بهم الكتب وشهدت عليها التأليف والتصانيف) .

وبعد أن ينتهي لسان الدين بن الخطيب من ذكر وجوه المفاضلة يشير الى حكمه العادل
واتصافه بالانصاف فيقول (فأنا يعلم الله قد عدلت لما حكمت، ورفعت لما أملت، وسكت عن
كثير وجليس فضل أثر إذ لم تحوج اليه ضرورة الفخر ولا داعية القهر) .

ثم يرسل لمسة أخيرة كأنما يريد الاعتذار لمدينة سلا عما أبداه مضطراً وقد دعاه الى
ذلك العدالة والانصاف فيقول (ولسلا الفضل لكن على أمثالها ونظرائها من بلاد المغرب
وأشكالها إذ لا ينكر فضل اعتدالها وأمنها من الفتن وأحوالها عند زلزالها ومدفن الملوك
الكرام بجبالها) .

وهو إذ يعتذر اعتذاراً خفيفاً يوسى الى الحيف الذي لحقها من المقارنة لأنه من الظلم
أن تجري المقارنة بين مدينتين غير متماثلتين أو متناظرتين ولكن سلا تفوق نظيراتها من دول
المغرب فهي معتدلة آمنة من الفتن كما انها مصب الأمطار ومرعى القطار) .

ومن الجدير بالذكر أن الدكتور العبادي كان مصيباً تمام الاصابة وموفقاً غاية التوفيق
في وضع رسائل ابن الخطيب الأربع بين دفتي كتاب لاختصاصها في وصف المدن وذكر محاسنها
ومساوئها الاقتصادية والاجتماعية والجغرافية) .

فالرسالة الأولى خصصت لمدينة مملكة غرناطة أما الرسالة الثانية فهي رسالة
مفاضلة بين مالقة وسلا في حين تقع الرسالة الثالثة في مجلسين يختص الأول بوصف بعض
مدن الأندلس في حين يختص المجلس الثاني بوصف مدن مراكش ولا سيما المدن الغربية أو
المقابلة للبر الغربي من الأندلس أمثال سبتة وغيرها) . أما الرسالة الرابعة فهي مأخوذة عن
كتاب نفاضة الجراب في علالة الاغتراب وهي بالأحرى فصل من فصول هذا الكتاب المذكور
أي الفصل المختص بجبل هنتاته (هنتاته اسم يطلق على جبل من جبال الأطلسي) .

وقد رأيت تعميماً للفائدة واستكمالاً للصورة أن أقف على ما يلقي بعض الأضواء على أعماله الرفيعة في هذا الصدد وبخاصة (معيار الاختيار في ذكر بعض المعاهد والديار) .

وأشير أيضاً إشارة سريعة إلى المعالم البارزة في رسالته الأخيرة :

ومن الواضح أنه في رسالته الثالثة (كتاب معيار الاختيار) يضع بعض الأسس ويتخذها معياراً للتحدث عن الديار والمعاهد وأغلب الظن أن عنوان الرسالة قد لحقه تصحيف في كلمة اختيار إذ أن هذه الكلمة صحفت إلى الاختبار وتلك ملحوظة قد وردت واضحة في النص حيث يقول (وقد يتخذ الإنسان مدينته أما جزافاً أو اتفاقاً أو عن اختيار وتحكيم معيار) .

ويشير في بداية رسالته هذه إلى افتقار الإنسان إلى أخيه الإنسان ، فالإنسان لا يستطيع القيام بجميع حوائجه لذلك لا بد من اجتماعه وائتلافه وهذا يكون باتخاذ مدينة يختزن بها أقواته ويحاول فيها معاشه .

وقد يتخذ الإنسان مدينته إما جزافاً أو اتفاقاً أو عن اختيار أو تحكيم معيار وتأسيس حكيم وتفويض للعقل عن طريق ذكر البلدان وذكر القاصي والداني ومزايا الأماكن وخصائص المنازل والمسكن والمقايح والمحاسن والطيب والآسن ولكن الإنسان قد يختار إذا كانت المحاسن تزيد على المساويء إذ وجود الكمال فاضح للآمال والله در القائل :

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

ويمضي بالمجلس الأول من هذه الرسالة بذكر بعض مدن الأندلس وبيان مساوئها ومحاسنها ، وعلى سبيل المثال فيقول في مدينة برشانة (فبرشانة حصن مانع ، وجناب يانع أهلها أولو عداوة لأخلاق البداوة ، وعلى وجوههم نضرة وفي أيديهم نداوة ، يداوون بالسلافة علل الجلافة ويؤثرون علل التخلف على أئدة الخلافة فأصبح ربهم ظرفاً قد ملئ ظرفاً . وللمجون بها بسوق وللفسوق ألف سوق تشمر به الأذيال عن سوق . وهي تبين بعض بيان عن أعيان ، وعلى وجوه نسوانها طلاق وفي ألسنتهن ذلاقة ولهن بالسفارة عن الفقراء علاقة . إلا أن جفنها ليس بذي سور يقيه مما يتقيه ، ووغدها يتكلم بلاء فيه ، وحليمها يشقى بالسفيه ، ومحيها تكمن حية الجور فيه) .

أما في المجلس الثاني فيتكلم على مدن مراكش فما هو ذا يقول عن مدينة فاس (رعى الله قطراً ينبت الغنى ظل على الدين ممدود وآفاقه نعيم العرين لأسود بني مدين . . . بلد نكاح وأكل، وضرب وركل، وامتياز من النساء بحسن زي وشكل ، يتنبه بها الباه وتتل الجباه . . .) .

وأما مدينة (الملك) أي فاس فيبضأ كالصباح أفق الغرر الصباح يحتقر لايوانها ايوان كسرى وترجع العين كسرى . . . إلى الناعورة التي مثلت من الفلك الدوار مثالا ، وأوحى الماء إلى كل سماء منها أمرها فأبدت امثالاً ومجت العذب البرود سلسالا وألفت أكوابها الترفه والترف فاذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى :

وقوراء من قوس الغمام ابتغوا لها
 فبين الثريا والثرى سد جرمها
 تصوغ لجين الماء في الروض دائماً
 وترسل من شهبانها ذا ذؤابة
 تذكرت العهد الذي اخترعت به
 وحنت فما تنفك ساجعة تبكي

أما رسالته الأخيرة نفاضة الجراب في علالة الاغتراب فهي أيضاً وصف للمدن التي زارها من خلال رحلته للمغرب ولكنه وصف مبسط فيه بعض التفصيل وينماز بوقفته على أهم رجال المدينة سواء الأحياء أم الأموات أم الغرباء الذين قبروا في ترابها المطاهر .

فها هو ذا يقول في أغمات (ثم أتينا أغمات في بسيط سهل موطأ لا نشز فيه ، ينال جميعه السقي الرغد وتركبه الخلجان وقد تموج به العشب . . . هذه المدينة قد اختطت في الفضاء الأفيع فبلغت الغاية من رحب الساحة وانقسام القورة . . . ومسجدها المذكور عتيق عادي كبير الساحة ومثذنته لا نظير لها في معمور الأرض . . . وأهل هذه البلدة ينسب اليهم نوك وغفلة . . . علقتها أن صدقت الأخبار سلامة وسداجة فتعمر بلجهم الأسمار وتتجمل بنوادر حكايتهم الأخبار . . . فمنها أن ملك المغرب لما عجب من هذه المئذنة استأذنه في نقلها الى بلده على سبيل الهدية . . .)

ثم يتابع الى أن يقول (وزرت بخارجها قبر المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أمير حمص (اشبيلية) وقرطبة والجزيرة وما الى ذلك الصقع الغربي ، رحمه الله ، وهو بالمقبرة القبلية عن يسار الخارج من البلد ، قد تَوَقَّلْ نشراً غير سام والى جانبه قبر الحرة حظيته وسكن نفسه اعتماد اشراكاً لاسمها في حروف لقبه المنسوبة الى رميك مولاهما المتوالة بشاته معها أخبار القصاص وحكايات الأسمار الى أجداث من ولدهما فترحمنا عليه وأنشدته :

قد زرت قبرك عن طوع باغمات
 لم لا أزورك يا أنلى الملوك يداً
 أناف قبرك في هضب يميزه
 كرمت حياً وميتاً واشتهرت علا
 رأيت ذلك من أولى المهمات
 ويا سراج اللالي المدلهمات
 فتنجيه حقيّات التحيات
 فانت سلطان أحياء وأموات

تلك صفحات من الأدب الفريد المبتكر الذي نهض وأتى أكله على يد أحد كبار الأدباء والشعراء والعلماء والسياسيين وهولسان الدين بن الخطيب وهذا غيض من فيض مما حفلت به الأندلس .

ذلك الأدب الذي نقرؤه بمزيد من النشوة والمتعة أحياناً وبمزيد من الفخر والاعتزاز أحياناً أخرى وعندما نرتد الى أنفسنا أو نتأمل تاريخ هؤلاء القوم تتفجر فينا اللوعة والحسرة والخزي على حضارة شامخة سادت وأدب رفيع تألق وعلم تدفق ومجتمع ليس له مثيل لكن ذلك كله ما لبث أن خبا وانقضى وأصبح خبراً من أخبار التاريخ وكأنا بالتاريخ يقول هؤلاء الناس أعطوا الأمانة فلم يكونوا أهلاً لها وحملوا المسؤولية فأضاعوها بسبب الأنانية والأهواء والتشرذم .